التعريب نظرة تاريخية تأصيلية

اللغة من أهم أدوات الإنسان لفهم العالم ونقل معارفه وخبراته من جيل إلى آخر

ينبغي فهم التعريب كمشروع علمي وثقافي وتعليمي متكامل لتمكين العربية من أداء وظائفها

ازدهار اللغات العلمية لم يكن منفصلاً عن حركة الترجمة والتفاعل بين الحضارات

تاريخ الحضارة العربية الإسلامية يقدم نموذجاً مهماً لدراسة العلاقة بين اللغة والترجمة والنهضة العلمية

العربية استوعبت علوم اليونان والفرس والهنود ولم تفقد هويتها بل اتسعت إمكاناتها بفضل هذا التفاعل

التعريب العلمي مشروع مؤسسي متكامل لا يمكن أن تنهض به الجهود الفردية وحدها



أ.د. مرزوق يوسف الغنيم
الأمين العام للمركز العربي لتأليف وترجمة العلوم الصحية

تُعدّ اللغة من أهم الأدوات التي يمتلكها الإنسان لفهم العالم وتفسير ظواهره ونقل معارفه وخبراته من جيل إلى آخر. وهي، إلى جانب وظيفتها التواصلية، وعاءٌ للفكر، وأداةٌ لبناء المفاهيم، ووسيلةٌ لتنظيم المعرفة وتداولها في المجتمع. وكلما اتسعت قدرة اللغة على استيعاب المفاهيم الجديدة والتعبير عن التطورات العلمية والتقنية، ازدادت قدرتها على الإسهام في النهضة الفكرية والحضارية، وتعززت مكانة المجتمع الذي يستخدمها في إنتاج المعرفة وتوظيفها.

ومن هذا المنطلق، لا يمكن النظر إلى التعريب باعتباره مجرد عملية لغوية تقتصر على نقل الكلمات والمصطلحات الأجنبية إلى العربية، بل ينبغي فهمه بوصفه مشروعًا علميًا وثقافيًا وتعليميًا متكاملًا، يستهدف تمكين اللغة العربية من أداء وظائفها في مختلف مجالات الحياة المعاصرة، وفي مقدمتها التعليم والبحث العلمي والطب والصحة والتكنولوجيا. فالتعريب، بمفهومه الواسع، يتصل بقدرة المجتمع على استيعاب المعرفة العالمية، وإعادة صياغتها في لغته، وتيسير تداولها بين أفراده، ثم الإسهام في تطويرها وإنتاج معرفة جديدة انطلاقًا من احتياجاته وواقعه الحضاري. وتزداد أهمية هذا الموضوع في عصر تتسارع فيه التحولات العلمية والتكنولوجية، وتتضاعف فيه أحجام المعلومات والمكتشفات، وتتداخل فيه التخصصات وتتجاوز فيه المعرفة الحدود الجغرافية والثقافية. ففي هذا السياق، لا يكفي أن تكون اللغة قادرة على نقل التراث أو التعبير عن التجارب الإنسانية المألوفة؛ بل يتعين أن تمتلك من المرونة والقدرة الاشتقاقية والدقة الاصطلاحية ما يؤهلها للتعامل مع المفاهيم العلمية المستجدة، وأن تتوافر لها مؤسسات علمية ولغوية قادرة على مواكبة التطور وتوحيد المصطلحات وتحديث المعاجم والمراجع.

ولقد أثبت التاريخ أن ازدهار اللغات العلمية لم يكن منفصلًا عن حركة الترجمة والتفاعل بين الحضارات. فاللغة التي تنفتح على منجزات الآخرين، وتستوعب علومهم، وتعيد تنظيمها وفق بنيتها الفكرية واللغوية، تستطيع أن تتحول إلى أداة فاعلة في بناء المعرفة. ومن هنا، فإن التعريب لا ينبغي أن يُفهم بوصفه انغلاقًا لغويًا أو رفضًا للغات الأخرى، وإنما باعتباره أحد أشكال المشاركة في الحضارة الإنسانية، ووسيلةً لتوسيع قاعدة المستفيدين من المعرفة، مع الحفاظ على إمكان التواصل المباشر مع مصادرها الأصلية. وانطلاقاً من هذه الأهمية التاريخية والمعرفية للتعريب، تبرز الحاجة إلى تناول هذا الموضوع من جوانبه المتكاملة، بدءاً بتحديد مفهومه وأبعاده، مروراً باستعراض تطوره التاريخي ومسوغاته العلمية والحضارية، وانتهاءً بالتعريف بمراكزه ومؤسساته ودورها في تطوير المصطلحات وتوحيدها، وذلك بهدف تكوين رؤية شاملة لطبيعة التعريب، وأهدافه، ومتطلبات النهوض به في العصر الحديث.

أولًا: مفهوم التعريب وأبعاده العلمية والحضارية

يتعدد استعمال مصطلح التعريب بحسب المجال الذي يرد فيه؛ فقد يُقصد به إدخال الألفاظ الأجنبية في العربية بعد إخضاعها لقواعدها الصوتية والصرفية، وقد يُراد به نقل المصطلحات والمفاهيم العلمية إلى العربية، وقد يتسع ليشمل اعتماد العربية لغةً للتدريس والتأليف والبحث العلمي والإدارة والتواصل المهني. ومن الضروري، في هذا المقام، التمييز بين التعريب والترجمة، على الرغم من الترابط الوثيق بينهما. فالترجمة تنقل المعنى من لغة إلى أخرى، مع مراعاة الدلالة والسياق والمقصد، أما التعريب فقد يتضمن ترجمة المصطلح أو اشتقاق مقابل عربي له أو تكييف اللفظ الأجنبي ليتلاءم مع النظام اللغوي العربي. وقد يشمل، في معناه المؤسسي والتعليمي الأوسع، إعداد الكتب والمراجع والمناهج وتوفير البيئة الاصطلاحية اللازمة لتدريس العلوم باللغة العربية. ولا تنحصر عملية التعريب الناجحة في إيجاد مقابل عربي لكل لفظ أجنبي؛ إذ إن المصطلح العلمي لا يؤدي وظيفته بمجرد سلامة صياغته اللغوية، بل يجب أن يعبر عن مفهوم محدد، وأن يكون منضبطًا في استعماله، ومتسقًا مع المصطلحات المرتبطة به داخل التخصص الواحد. ومن ثم، فإن التعريب العلمي عملية متعددة المراحل، تبدأ بفهم المفهوم في مصدره العلمي، ثم تحديد المقابل المناسب له، والتحقق من دقته، واعتماده ضمن منظومة اصطلاحية متكاملة، ونشره في المعاجم والمراجع والمناهج، ومتابعة مدى شيوعه واستقراره في الاستعمال العلمي.

ويستدعي ذلك تعاونًا وثيقًا بين اللغويين والمترجمين والمتخصصين في العلوم المختلفة؛ لأن اللغوي، مهما بلغت معرفته، لا يستطيع وحده تحديد الدلالة الدقيقة لمصطلح طبي أو فيزيائي أو هندسي، كما أن المتخصص العلمي قد يحتاج إلى خبرة لغوية تساعده على اختيار المقابل الأكثر وضوحًا ودقة وقابلية للاشتقاق والتداول. فالتعريب، بهذا المعنى، ثمرة عمل جماعي تتكامل فيه المعرفة اللغوية مع الخبرة العلمية والتحرير الاصطلاحي. كما ينبغي ألا يُختزل التعريب في استبدال المفردات الأجنبية بمفردات عربية داخل الكتب والمحاضرات، في حين تظل مصادر المعرفة ووسائل إنتاجها والبحث فيها بعيدة عن متناول المتعلم بلغته. فالتعريب الفاعل هو الذي يربط المصطلح بالمفهوم، والمفهوم بالمصدر العلمي، والمصدر بالتعليم والتطبيق والبحث؛ وبذلك يتحول من نشاط لغوي محدود إلى مشروع لبناء القدرة المعرفية.

ثانيًا: التعريب في التاريخ العلمي والحضاري

يقدم تاريخ الحضارة العربية الإسلامية نموذجًا مهمًا لدراسة العلاقة بين اللغة والترجمة والنهضة العلمية. فقد شهدت القرون الأولى من العصر العباسي حركة واسعة لنقل المؤلفات العلمية والفلسفية والطبية من اليونانية والسريانية والفارسية والسنسكريتية وغيرها إلى العربية. ولم تكن هذه الحركة مجرد استنساخ للمعارف السابقة، بل أسهمت في تكوين رصيد علمي باللغة العربية، أتاح للعلماء قراءة النظريات السابقة ومناقشتها وتطويرها، ثم التأليف والإضافة في مجالات متعددة.وقد تناول الدكتور أحمد رجب ـ عميد كلية الآثار بجامعة القاهرة السابق، هذه الحركة في دراسة نشرت عام 2017م في مجلة Isis وهي مجلة أكاديمية مُحكمة تصدرها جامعة شيكاغو في الولايات المتحدة، موضحًا أن تاريخ العربية بوصفها لغةً للعلم ارتبط بحركتين بارزتين للترجمة: الأولى في العصر العباسي، والثانية في سياق إنشاء المدارس الحديثة في القرن التاسع عشر وما صاحبها من نقل المؤلفات العلمية الأوروبية إلى العربية. وتكشف هذه القراءة أن بناء اللغة العلمية لم يكن حدثًا عابرًا، بل عملية تاريخية تراكمية تشكلت من خلال الترجمة والتأليف والتفاعل المستمر مع اللغات والثقافات الأخرى. وقد مثّل بيت الحكمة في بغداد، وما ارتبط به من نشاط علمي وترجمي، إحدى أبرز صور الرعاية المؤسسية للمعرفة في العصر العباسي. وأسهم مترجمون وعلماء، من بينهم حنين بن إسحاق، في نقل مؤلفات طبية وفلسفية وعلمية، وفي مراجعة الترجمات وتحسينها وضبط مصطلحاتها. وأتاح هذا العمل للغة العربية أن تستوعب قدرًا كبيرًا من المعارف المتداولة آنذاك، وأن تصبح لغةً للتدريس والتأليف والبحث في عدد من الميادين العلمية.

وفي دراسته عن انتقال العلوم عبر الترجمة إلى العربية، يوضح المؤرخ الأمريكي سكوت مونتغمري أن حركة الترجمة العباسية كانت من أكبر عمليات نقل المعرفة بين الثقافات في تاريخ العالم الوسيط، وأنها شملت مصادر يونانية وسريانية وفارسية وهندية، وركزت بصفة خاصة على العلوم والرياضيات والطب والفلسفة. ويبرز هذا التحليل أن الترجمة العلمية كانت وسيلةً لنقل المعرفة بين المجتمعات، وأن أثرها تجاوز حدود اللغة إلى إعادة تشكيل الحياة الفكرية والعلمية. وتؤكد هذه التجربة أن قوة اللغة العلمية لا تُقاس بأصل المصطلحات التي تستخدمها، بل بقدرتها على استيعابها وتفسيرها وتوظيفها في بناء معرفة جديدة. فالعربية التي استوعبت علوم اليونان والفرس والهنود لم تفقد هويتها، وإنما اتسعت إمكاناتها بفضل هذا التفاعل، وأصبحت أداةً لنقل المعرفة وتطويرها. ومن ثم، فإن استلهام هذا الإرث لا يعني الاكتفاء بالفخر بالماضي، بل يقتضي استعادة مبدأ الانفتاح العلمي المنظم، والاهتمام بالترجمة المتخصصة، والاستثمار في التأليف والبحث وتطوير المصطلحات.

وفي العصر الحديث، ارتبط تجدد الاهتمام بالتعريب بمشروعات التحديث التعليمي والعلمي في عدد من البلدان العربية. ففي مصر، خلال عهد محمد علي في القرن التاسع عشر، ارتبط إنشاء المدارس الحديثة، ومنها مدرسة الطب، بترجمة الكتب العلمية وإعداد مواد تعليمية عربية، كما أسهمت مدارس الترجمة في تكوين كوادر قادرة على نقل المعارف الأوروبية. وتوضح الدراسات التاريخية أن هذه الجهود كانت جزءًا من مشروع أوسع لتحديث مؤسسات الدولة والتعليم والطب، وأنها ساعدت على إعادة توسيع وظائف العربية لتشمل ميادين علمية حديثة. وفي مرحلة لاحقة، ظهرت مجامع اللغة العربية لتؤدي دورًا مؤسسيًا في تطوير اللغة وتوسيع رصيدها الاصطلاحي. ومن أبرزها مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الذي أُنشئ بمرسوم ملكي في 13 ديسمبر 1932، وكان من أهدافه تلبية حاجات العلوم والفنون والحضارة الحديثة، ووضع المعاجم، والنظر في الألفاظ والأساليب والمصطلحات المستجدة. وتوضح تجربة المجامع أن تحديث اللغة لا يتحقق بالجهود الفردية وحدها، بل يحتاج إلى مؤسسات تتولى البحث والمراجعة وضبط المعارف والتنسيق والنشر. وهكذا، فإن التاريخ يضع أمامنا حقيقة أساسية: كل نهضة علمية تحتاج إلى حركة ترجمة نشطة، وإلى مؤسسات تتولى بناء المصطلحات، وإلى بيئة تعليمية تتيح تداول المعرفة، وإلى صلة متواصلة بين الترجمة والتأليف والإنتاج العلمي. وهذه العناصر مجتمعة هي التي تمنح التعريب قيمته الحضارية، وتحول دون اختزاله في نشاط لغوي شكلي.

ثالثًا: مسوغات التعريب ودواعيه

تتعدد مسوغات التعريب، وتتداخل فيها الاعتبارات المعرفية والتربوية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية. ولا يعني تعدد هذه الاعتبارات أن التعريب يصلح وحده لحل جميع مشكلات التعليم والبحث العلمي، وإنما يعني أنه أحد العناصر المهمة في بناء منظومة معرفية أكثر قدرة على الاستيعاب والمشاركة والإنتاج، وذلك على النحو التالي:

1ـ المسوغ المعرفي والتعليمي:

تُعد اللغة وسيطًا أساسيًا لفهم المفاهيم العلمية، وتنظيم الأفكار، وتفسير العلاقات بين الظواهر. وكلما تمكن المتعلم من اللغة التي يتلقى بها المعرفة، أمكنه أن يوجه قدرًا أكبر من جهده إلى فهم المحتوى العلمي بدلًا من الانشغال المستمر بتجاوز الصعوبات اللغوية. ومع ذلك، فإن أثر لغة التدريس يتوقف على عوامل متعددة، منها كفاءة المعلم، وجودة المناهج، وملاءمة المصطلحات، وتوافر الكتب والمراجع، ومستوى إتقان المتعلم للغة المستخدمة.

وفي هذا السياق، أكدت منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو)، في تقرير خبرائها الصادر عام 1953م بشأن استخدام اللغات الأم في التعليم، أهمية استخدام اللغة الأم في التعليم متى كانت مؤهلة لذلك، كما شددت على ضرورة توافر المواد التعليمية والكتب المناسبة. وأشار التقرير كذلك إلى إمكان تعلم لغة ثانية بكفاءة من دون اشتراط استخدامها لغةً لتدريس جميع المواد منذ البداية. وهذه التوصيات تقدم أساسًا تربويًا مهمًا للنظر في التعريب بوصفه وسيلةً لدعم الفهم، مع عدم إغفال أهمية تعلم اللغات الأجنبية والوصول إلى مصادر المعرفة العالمية.

وفي دراسة منشورة عام 2022م، لكل من دلال الزعبي وأحمد الشريف وكرم الزعبي حول اتجاهات طلبة الطب وأعضاء هيئة التدريس في الجامعات الأردنية نحو تعريب المصطلحات الطبية، ونشرت الدراسة في مجلة Heliyon وهي مجلة علمية مُحكمة تصدر عن دار النشر العالمية Elsevier في لندن. وأظهرت الدراسة وجود اتجاهات إيجابية عامة نحو المصطلحات الطبية العربية، إلى جانب معوقات عملية، أبرزها اعتماد التدريس والامتحانات على الإنجليزية، ونقص المراجع الطبية العربية المتخصصة. وتدل هذه النتائج على أن النجاح لا يعتمد على قبول الفكرة فحسب، بل يحتاج إلى توفير الكتب والمراجع والتدريب والتنسيق بين المصطلحات المستخدمة في التعليم والتقويم والممارسة المهنية.

2ـ المسوغ الاجتماعي وإتاحة المعرفة:

إن إتاحة المعرفة بلغة يفهمها أفراد المجتمع تمثل عنصرًا مهمًا في توسيع المشاركة العلمية والصحية. ففي المجال الصحي، على سبيل المثال، لا تقتصر أهمية المصطلحات العربية على التعليم الجامعي، بل تمتد إلى التثقيف الصحي، وتفسير التشخيصات، وشرح الإجراءات العلاجية، وتوعية المرضى وأسرهم. فالمعرفة الصحية التي لا تصل إلى المتلقي بلغة واضحة قد تفقد جانبًا من قيمتها العملية، حتى لو كانت دقيقة في مصدرها الأصلي. ومن هنا، يسهم التعريب في تقليل الحواجز اللغوية التي قد تحول دون فهم المعلومات الصحية، ويتيح للمهنيين التواصل بصورة أوضح مع المرضى، شريطة استخدام مصطلحات دقيقة ومفهومة، وتكييف الشرح بحسب مستوى المتلقي. ويجب التمييز في هذا المجال بين لغة التواصل مع الجمهور ولغة التخصص المهني؛ فلكل منهما متطلباته، وقد يحتاج المصطلح العلمي الدقيق إلى تعريف مبسط أو شرح إضافي عند استخدامه في التثقيف الصحي.

3ـ المسوغ العلمي والاقتصادي:

يساعد وجود لغة علمية وطنية متطورة على توسيع قاعدة المستفيدين من التعليم، وتعزيز القدرة على تدريب الكوادر، وإعداد الكتب والأدلة والمراجع المحلية، وتطوير المحتوى الرقمي المتخصص. كما أن بناء المصطلحات وتوحيدها يسهلان تداول المعلومات بين الجامعات والمستشفيات ومراكز البحث والهيئات المهنية.

غير أن التعريب لا يعني الاستغناء عن الإنجليزية أو الفرنسية أو غيرهما من اللغات العلمية العالمية. فالانفتاح على الإنتاج العلمي المنشور بهذه اللغات يظل ضرورةً للباحث والطبيب والمهندس، كما أن الاطلاع على المصادر الأصلية يتيح التحقق من دقة الترجمة ومتابعة المستجدات. والمطلوب هو بناء علاقة تكاملية بين إتقان اللغات الأجنبية والقدرة على التعلم والتدريس والتواصل العلمي بالعربية، بحيث لا يتحول تعلم لغة أجنبية إلى حاجز أمام الفهم، ولا يصبح استخدام العربية عائقًا أمام الوصول إلى أحدث المعارف.

4ـ المسوغ الثقافي والحضاري:

تؤدي اللغة دورًا في نقل الخبرة الإنسانية وتشكيل المفاهيم وتحديد طرائق تداولها. ومن ثم، فإن تطوير العربية لتستوعب العلوم الحديثة يسهم في استمرار حضورها في المجالات المعرفية، وفي تمكين الأجيال الجديدة من التعامل مع العلم بلغتها، من غير انفصال عن السياق العالمي. ولا يتعارض هذا التوجه مع عالمية العلم؛ فالمعرفة العلمية ملك للإنسانية، وتتطور من خلال التعاون وتبادل النتائج والخبرات بين الباحثين من مختلف اللغات والثقافات. ولذلك فإن التعريب ليس مطالبةً بعزل العربية عن المصطلحات العالمية، وإنما هو سعيٌ إلى بناء قدرة لغوية وعلمية تتيح المشاركة في هذا التبادل على أساس من التكافؤ المعرفي والانفتاح.

رابعًا: العلماء العرب وغير العرب وأهمية اللغة والترجمة في بناء المعرفة

تتجلى أهمية التعريب عند النظر إلى تاريخ العلماء الذين عملوا على نقل المعرفة بين اللغات، وإلى شهادات الباحثين الذين درسوا دور الترجمة في تطور العلوم. فقد قدم العلماء العرب والمسلمون نموذجًا تاريخيًا للانفتاح على المعارف السابقة وتطويرها. ويبرز عمل حنين بن إسحاق في ترجمة المؤلفات الطبية، ولا سيما تراث جالينوس، أهمية الجمع بين التمكن من اللغات والمعرفة بالتخصص العلمي. ولم تكن الترجمة العلمية الدقيقة مجرد استبدال كلمات بأخرى، بل كانت تتطلب فهم المفاهيم الطبية، ومقارنة النصوص، ومراجعة الترجمات، وتحديد المصطلحات التي تحقق الوضوح والدقة. ولهذا ارتبط ازدهار الترجمة في العصر العباسي بعمل المترجمين والأطباء والعلماء، وبوجود رعاية مؤسسية تتيح لهم أداء هذه المهمة. وتساعدنا دراسة أحمد رجب المنشورة في مجلة Isis على فهم هذه العملية من منظور تاريخي؛ إذ يبين أن العربية العلمية تشكلت من خلال تفاعل مستمر مع لغات أخرى، وأن بناء رصيد علمي باللغة العربية كان عملية تدريجية شارك فيها المترجمون والعلماء والرعاة والمؤسسات. وتكتسب هذه الملاحظة أهمية خاصة في النقاش المعاصر حول التعريب؛ لأنها تنقل الاهتمام من فكرة الاكتفاء بالمفردات العربية إلى ضرورة بناء منظومة متكاملة لإنتاج المعرفة ونقلها. ومن بين الباحثين غير العرب الذين درسوا تاريخ العلم، يبرز جورج سارتون، المؤرخ البلجيكي الأميركي وأحد رواد تاريخ العلم الحديث، الذي خصص عمله الموسوعي «مقدمة في تاريخ العلوم» (Introduction to the History of Science) لتتبع تطور المعرفة العلمية عبر العصور والحضارات. وقد أتاح منهجه دراسة العلوم ضمن سياقاتها التاريخية، وعدم فصل تطورها عن انتقال المعارف بين المجتمعات. ويُستفاد من هذا المنظور في فهم إسهام الحضارة العربية الإسلامية في تاريخ العلوم، وفي إدراك أن تقدم المعرفة الإنسانية حصيلة تراكم وتفاعل يتجاوزان حدود اللغات والثقافات. كما يوضح سكوت مونتغمري، في دراسته عن حركة الترجمة إلى العربية، أن نقل المعرفة العلمية بين الثقافات كان عملية تاريخية واسعة النطاق، وأن الترجمة أدت دورًا رئيسًا في انتقال العلوم من بيئات لغوية متعددة إلى العربية. ويؤكد هذا المنظور أن الانفتاح على المعرفة العالمية لا يتحقق بمجرد استيراد الكتب، بل يحتاج إلى عمل ترجمي وعلمي منظم يسمح باستيعاب الأفكار وتداولها وتطويرها.

وتلتقي هذه الشواهد التاريخية مع التوجهات الحديثة التي ترى في اللغة والتعليم والتواصل عناصر مترابطة في بناء المعرفة. وهي لا تثبت أن التدريس بلغة بعينها يضمن التفوق العلمي بصورة آلية، لكنها تدعم فكرة أن المجتمعات تستطيع تطوير لغاتها لتؤدي وظائف علمية متقدمة، متى توافرت لها المؤسسات والموارد والمناهج والكفاءات المناسبة.

خامسًا: مراكز التعريب ومؤسساته ودورها في توحيد المصطلحات

إن التعريب العلمي مشروع مؤسسي متكامل لا يمكن أن تنهض به الجهود الفردية وحدها؛ فهو يتطلب تضافر خبرات اللغويين والمترجمين والعلماء والمتخصصين، وتوافر مؤسسات تتولى التخطيط والتنسيق والمراجعة والتوثيق والنشر والتحديث. وتزداد أهمية هذا الدور في العلوم الصحية، نظرًا إلى اتساع فروعها، وتسارع تطوراتها، وتعدد مصطلحاتها، وما تقتضيه من دقة في التعبير عن المفاهيم الطبية والتشخيصية والعلاجية والبحثية. وقد شهد الوطن العربي تأسيس عدد من المجامع اللغوية والمراكز المتخصصة والمنظمات الإقليمية التي أسهمت في تطوير المصطلحات العلمية، وإعداد المعاجم، وترجمة الكتب والمراجع، ونشر الثقافة العلمية باللغة العربية. ومن أبرز هذه المؤسسات مجامع اللغة العربية في القاهرة ودمشق وبغداد وعمّان والرباط، ومكتب تنسيق التعريب التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الألكسو)، فضلًا عن المؤسسات الصحية والعلمية المتخصصة التي جعلت من التعريب جزءًا من رسالتها الأساسية. وفي مجال العلوم الصحية على وجه الخصوص، تبرز جهود منظمة الصحة العالمية، ومجلس وزراء الصحة العرب، واتحاد الأطباء العرب، والجامعات وكليات الطب العربية، إلى جانب المراكز المتخصصة في التأليف والترجمة. وقد أسهم التعاون بين هذه الجهات في تطوير المعاجم الطبية، وإعداد الكتب الجامعية، وتوفير المصطلحات اللازمة للتدريس والممارسة المهنية، وتعزيز حضور اللغة العربية في المؤسسات الصحية والتعليمية. وتوضح تجربة التعاون العربي في إعداد المعاجم الطبية أن توحيد المصطلحات يحتاج إلى عمل جماعي مستمر، يجمع بين الدقة العلمية والسلامة اللغوية وقابلية المصطلح للاستخدام في مختلف البيئات العربية.

ويحتل المركز العربي لتأليف وترجمة العلوم الصحية، ومقره دولة الكويت، وهو أحد أجهزة مجلس وزراء الصحة العرب التابع لجامعة الدول العربية، مكانة بارزة في مسيرة تعريب العلوم الصحية في الوطن العربي؛ إذ اضطلع، على مدى عقود، بمهمة إعداد الكتب والمراجع الطبية، وترجمة المؤلفات العلمية، وإصدار المعاجم المتخصصة، والأطالس الطبية، ونشر الثقافة الصحية باللغة العربية. ولا تقتصر أهمية هذه الجهود على حجم الإنتاج المنشور، بل تمتد إلى بناء رصيد معرفي واصطلاحي عربي يمكن الإفادة منه في التعليم الطبي والبحث العلمي والتدريب والممارسة الصحية. وقد تبنى المركز رؤية تقوم على توفير مصادر علمية عربية موثوقة، وتيسير نقل المعرفة الطبية إلى اللغة العربية، ودعم إعداد المناهج والكتب الجامعية، وتعزيز التواصل بين المؤسسات الصحية والعلمية في البلدان العربية. وتنسجم هذه الرؤية مع الحاجة إلى تمكين اللغة العربية من أداء دورها في تدريس العلوم الصحية وتداول المعرفة الطبية، مع المحافظة على الصلة بالمصادر العلمية العالمية ومواكبة المستجدات في مختلف التخصصات. وتتجلى أهمية تجربة المركز في تنوع إصداراته؛ فهي تشمل المناهج الطبية الجامعية، والمعاجم العامة والمتخصصة، والأطالس الطبية، وكتب الثقافة الصحية الموجهة إلى الجمهور، فضلًا عن الدوريات والأنشطة العلمية التي تعالج قضايا التعريب والترجمة الطبية. وقد تجاوز رصيد المركز 800 كتاب وإصدار في المجالات الصحية المختلفة، بما يعكس اتساع نطاق نشاطه وتراكم خبرته المؤسسية. ومن بين أبرز مشروعات المركز المعجمية مشروع «المعجم المفسر للطب والعلوم الصحية»، الذي يمثل إضافة نوعية إلى الجهود العربية الرامية إلى بناء مرجع اصطلاحي طبي يجمع بين المقابل العربي للمصطلح الإنجليزي وشرحه العلمي. وقد أصدر المركز حتى الآن اثني عشر مجلدًا من هذا المعجم، ويواصل العمل على استكمال بقية مجلداته.

وتنبع أهمية هذا المشروع من أن وظيفته لا تقتصر على تقديم قائمة من المفردات الأجنبية ومقابلاتها العربية، وإنما تتجاوز ذلك إلى تفسير المصطلحات وتوضيح دلالاتها العلمية. فالمصطلح الطبي قد يرتبط بمفهوم تشريحي أو فسيولوجي أو مرضي أو تشخيصي أو علاجي لا يكفي في فهمه معرفة المقابل اللغوي وحده؛ بل يحتاج إلى تعريف يحدد ماهيته، ويشرح استعماله، ويميزه من المصطلحات القريبة منه. ومن هنا، فإن وصف المعجم بأنه «مفسر» يعبر عن توجه علمي مهم في صناعة المعاجم الطبية؛ إذ يجمع بين الوظيفة الاصطلاحية والوظيفة التفسيرية، ويعين القارئ على فهم المفهوم الطبي، بدلًا من الاكتفاء بمقابله اللغوي. كما يتيح هذا النهج للمتخصصين والمترجمين والطلبة والباحثين الرجوع إلى مرجع يساعدهم على التحقق من دلالة المصطلح واختيار المقابل الملائم للسياق العلمي. وقد حظي المشروع بتقدير عربي، تمثل في فوز المركز العربي لتأليف وترجمة العلوم الصحية بجائزة الشيخ محمد بن راشد للغة العربية عام 2023، ضمن فئة أفضل مشروع تعريب أو ترجمة في محور السياسة اللغوية والتخطيط والتعريب. ويعكس هذا التكريم الاعتراف بأهمية المشروع في دعم المحتوى العلمي العربي وتطوير أدواته الاصطلاحية. وإلى جانب هذا المشروع، أصدر المركز عددًا من المعاجم الطبية المتخصصة التي تغطي فروعًا متعددة، منها الأشعة والأورام، والطب النفسي، وأمراض النساء والتوليد، وأمراض الفم والأسنان، والباثولوجيا والمختبرات، وجراحة العظام والتأهيل، والوراثيات، والتمريض. وتكتسب هذه الإصدارات أهميتها من أنها تتيح معالجة المصطلحات ضمن سياقاتها التخصصية، وتساعد على تطوير لغة مهنية عربية أكثر دقة واتساقًا. وتكمل هذه الجهود مجموعة من الأطالس الطبية التي أصدرها المركز، ومنها أطلس أمراض العيون، وأطلس الأمراض الجلدية، وأطلس الهستولوجيا، وأطلس أمراض الفم، وأطلس الوراثيات، وأطلس التشريح العصبي لمناطق اللغة في الدماغ البشري، وأطلس الأمراض الجلدية لدى المسنين والأطلس الملون لعلم البكتيريا الطبية. وتجمع هذه الأطالس بين المصطلح العلمي والمادة البصرية التوضيحية، بما يساعد على ربط التسمية بالمفهوم أو البنية التشريحية أو المظهر المرضي الذي تشير إليه. وتؤدي الأطالس الطبية وظيفة مهمة في التعريب؛ لأنها توضح أن نقل العلوم إلى العربية لا يتحقق بالترجمة النصية وحدها، بل يستفيد أيضًا من الصور والرسوم والمخططات والتعليقات التفسيرية التي تسهم في ترسيخ المفاهيم وتيسير فهمها. ويكتسب هذا الجانب أهمية خاصة في العلوم الطبية، حيث ترتبط كثير من المصطلحات ببنى الجسم وأعضائه وأنسجته، أو بمظاهر الأمراض ووسائل تشخيصها، وهي موضوعات تستفيد من الجمع بين الشرح اللفظي والتمثيل البصري. ومن الجوانب المهمة في تجربة المركز كذلك اهتمامه بالمناهج الطبية والثقافة الصحية. فالتعريب لا يقتصر على خدمة طلبة الطب والباحثين والمتخصصين، بل يشمل أيضًا توفير معلومات صحية باللغة العربية تساعد الجمهور على فهم القضايا المتعلقة بالصحة والوقاية والأمراض والعلاج. وبهذا المعنى، تتكامل وظيفة المعجم الطبي مع وظيفة الكتاب الجامعي والأطلس الطبي وكتب الثقافة الصحية، ضمن منظومة تستهدف إتاحة المعرفة لمختلف فئات المجتمع.

ولا ينبغي النظر إلى هذه الإصدارات باعتبارها إنتاجًا نشريًا منفصلًا، بل باعتبارها مكونات مترابطة في مشروع لبناء المعرفة الصحية باللغة العربية. فالمعاجم تضبط المصطلحات وتفسرها، والكتب الجامعية تقدم المعرفة ضمن بناء تعليمي متكامل، والأطالس توضح المفاهيم بصريًا، أما كتب الثقافة الصحية فتقرب المعرفة من الجمهور. ويتيح هذا التنوع للمركز أن يخدم مستويات مختلفة من الاحتياج المعرفي، من التعليم الأكاديمي والتدريب المهني إلى التثقيف الصحي العام. على الرغم من أهمية إعداد المعاجم والأطالس، فإن نجاح التعريب يتطلب تجاوز مرحلة إنتاج المصطلحات إلى مرحلة ترسيخها في الاستخدام العلمي والتعليمي. فالمصطلح لا يكتسب مكانته بمجرد نشره في معجم، وإنما تتعزز فاعليته عندما تستخدمه الجامعات في المناهج والمحاضرات، وتعتمده المؤسسات في المراجع والأدلة المهنية، ويستعمله الباحثون في الكتابة العلمية، ويجري تحديثه كلما طرأت تغيرات على المفهوم الذي يدل عليه. ومن هنا، تبرز أهمية دور المركز العربي لتأليف وترجمة العلوم الصحية في توفير مراجع يمكن أن يستند إليها المتخصصون عند تعريب أو ترجمة المصطلحات الطبية أو تحرير النصوص الصحية أو إعداد المواد التعليمية. كما تبرز الحاجة إلى تعزيز التعاون بين المركز والمجامع اللغوية والجامعات وكليات الطب والهيئات المهنية، بما يسهم في توسيع نطاق الإفادة من هذه المراجع، ومناقشة المصطلحات المستحدثة، والحد من التباين غير الضروري في المقابلات العربية. ويتطلب هذا التعاون اعتماد آليات واضحة لمراجعة المصطلحات وتوثيقها وتحديثها، وإتاحة قواعد بيانات إلكترونية يسهل البحث فيها، وربط المصطلح بتعريفه ومجاله التخصصي ومرادفاته المعتمدة. كما ينبغي أن تكون عملية التوحيد منفتحة على الملاحظات العلمية واللغوية التي يقدمها المستخدمون، وأن تستند إلى المراجعة الدورية؛ لأن العلوم الصحية من أكثر المجالات تعرضًا للتطور المستمر. ومن المهم أيضًا أن تتبنى المؤسسات نهجًا مرنًا في التعامل مع المصطلحات الجديدة، يوازن بين سلامة العربية وسهولة الاستعمال ودقة المفهوم. فليس كل لفظ أجنبي بحاجة إلى ترجمة حرفية، وليس كل مقابل عربي مقترح مناسبًا بالضرورة. وقد يكون الاشتقاق أو التوليد أو التعريب الصوتي أو استخدام وصف تفسيري هو الحل الأنسب، تبعًا لطبيعة المصطلح ومجاله ومدى استقراره في الاستخدام العلمي. ويضاف إلى ذلك ضرورة الاستفادة من التقنيات الحديثة، ومنها المعاجم الرقمية، وقواعد البيانات متعددة اللغات، وأدوات معالجة اللغة العربية، والترجمة بمساعدة الحاسوب، والأنظمة الذكية التي تعين على اكتشاف المصطلحات الجديدة ومقارنتها. غير أن هذه الأدوات ينبغي أن تعمل تحت إشراف علمي ولغوي متخصص؛ لأن الاتساق الاصطلاحي والدقة المفهومية والمسؤولية المهنية لا يمكن ضمانها بمجرد الاعتماد على المعالجة الآلية. وبذلك، فإن التعريب لا يُقاس بعدد المصطلحات التي تُترجم، ولا بعدد الكتب التي تُنقل إلى العربية فحسب، بل بمدى إسهامه في تحسين الفهم والتعليم، وتيسير التواصل المهني، وتوسيع قاعدة المشاركة في المعرفة، ودعم التأليف والبحث العلمي باللغة العربية. إن التعريب، في جوهره، مشروع لبناء القدرة العلمية باللغة العربية، وتعزيز حضورها في ميادين المعرفة المعاصرة. وهو مشروع يستمد أهميته من تاريخ طويل من التفاعل بين اللغات والحضارات، ومن حاجة المجتمعات العربية إلى تعليم علمي راسخ، ومراجع موثوقة، ومصطلحات دقيقة، ومؤسسات قادرة على مواكبة التطورات المتسارعة في العلوم والتقنيات. وقد بين التاريخ أن اللغة العربية استطاعت، في مراحل ازدهارها العلمي، أن تستوعب معارف متعددة المصادر، وأن تصبح أداةً للترجمة والتأليف والبحث. كما أظهرت التجارب الحديثة أن تطوير المصطلحات لا ينجح بمعزل عن المؤسسات العلمية واللغوية، وأن الترجمة المتخصصة وتوحيد المصطلحات وإعداد المراجع وتدريب الكوادر عناصر أساسية في بناء بيئة علمية قادرة على الاستمرار والتجدد. وفي العلوم الصحية، تكتسب هذه المهمة أهمية إضافية، نظرًا إلى ارتباط المعرفة الطبية بحياة الإنسان وسلامته، وحاجة الأطباء والباحثين والطلبة والمرضى إلى لغة دقيقة وواضحة تساعد على الفهم والتواصل واتخاذ القرار. ومن هذا المنطلق، فإن جهود تعريب العلوم الصحية لا ينبغي أن تقتصر على نقل المصطلحات، بل يجب أن تمتد إلى بناء المحتوى العلمي العربي وتحديثه، وتعزيز استخدامه في التعليم والممارسة والتثقيف الصحي، مع الحفاظ على الصلة بالمصادر العالمية واللغات التي تُنشر بها الأبحاث. ويأتي هذا الكتاب، الذي يصدر عن المركز العربي لتأليف وترجمة العلوم الصحية، في سياق الحاجة إلى تقديم معالجة علمية منظمة لمفهوم التعريب وتاريخه ومسوغاته ومراكزه ومؤسساته. وهو يسعى إلى وضع الموضوع في إطاره اللغوي والتاريخي والمعرفي والمؤسسي، وإبراز ما يتطلبه من ت